الإعجاز العلمي وأثره في تحقيق الاطمئنان العقدي

د.عبد الصمد بوذِيّاب

ملخص البحث

تحدث البحث عن أثر القرآن الكريم في تحقيق الاطمئنان و ترسيخ العقيدة الدينية التي سعى لتحصيلها الأنبياء والمرسلون، والعلماء والأتقياء والصالحون، فاستجاب الله للأنبياء والمرسلين وحيًا، وللعلماء توجيهًا وإرشادًا، و ذلك باستعمال الحجاج الكلامي تارة، ومجاهدة النفس تارة أخرى.، وذكر الباحث أن الإعجاز البياني والبلاغي قد قاما بأدوار إقناعية إيمانية للوصول للاطمئنان العقدي – سيما – في زمن النبوة والأزمنة القريبة منه، حينما عجز المشوشون والمشككون أن يأتوا بمثل القرآن أو بمثل أقصر سوره، فاطمئن المؤمنون لإيمانهم وأقنعوا غيرهم بمعجزة البلاغة القرآنية التي ضمنها الله الوحي المنزل عليهم. وختم البحث بقوله كما ذهب العلماء فيما سبق لتوظيف الاعجاز البياني في ترسيخ العقائد الإسلامية وجب على علماء العصر توظيف الاعجاز العلمي لترسيخ العقيدة الإسلامية. و ذكر ان الاطمئنان العقدي في زماننا وما يعرفه من تطور علمي ورقمي.. لا تنفع فيه – دائما – المجاهدة الروحية ولا الأساليب الكلامية. لذا فإن الإعجاز العلمي وربطه بالعقيدة هو الأقدر على جلب الاطمئنان العقدي ودفع الوهم والشك الإيماني.. في زمن تطور العلوم وتسارعها.

The **Scientific Miraculousness and Its Impact in Achieving the Ideological Reassurance**

Abdul Samad Bu thyab

Abstract

The present paper tackles the ideological reassurance which is an aspect to which all Prophets, Allah Messengers, scientists, and pious seek look for it. For Prophets and Messengers, Allah responds to them in terms of revelation. For the others, Allah responds to them in terms of guidance. To get the ideological reassurance, they follow speech disproof or self-jihad. Because of the scientific development, especially in terms of digital development in which speech disproof or self-jihad can do nothing in getting ideological reassurance, thus connecting the scientific miraculousness with doctrine is the only way to get the ideological reassurance and to get rid of the illusion in the time of the scientific progression.

الإعجاز العلمي وأثره

في تحقيق الاطمئنان العقدي

د. عبد الصمد بوذِيّاب
باحث في الدراسات العقدية والفكرية
وعضو هيئة الإعجاز العلمي لشمال المغرب
وعضو هيئة التحكيم بمجلة الهيأة الدولية

تقديم

إن الاطمئنان العقدي وطرد الوسواس الشيطاني.. كان ولا يزال مقصدًا يتغياه المسلمون كلّهم، والمؤمنون جميعهم، ولتحصيله والوصول إليه، أنزل الله تعالى الآيات البيّنات.. وأيد الله الأنبياء والرسل بالمعجزات الواضحات.. والأولياء بالكرامات ورفع المقامات.. ووهب علماء الأمة ومجدديها الملكات الحجاجيّة والقدرات الإقناعية في الردود والمناظرات.. كل ذلك كي تصان عقيدة المسلمين من كل الشبهات والمشوشات..

غير أن زماننا وما يعرفه من تسارع في الرقمنة والاختراع العلمي.. يفرض علينا البحث باستمرار عن ما يضمن سلامة عقيدة هذا الجيل والأجيال المقبلة من الوسوسة والتشويش، وطمأنة عقولهم وأفئدتهم بلغة العلم، اللغة التي يفهمونها ويصدقون النتائج الموصلة إليها..

فما أهمية الاطمئنان العقدي وما ضرورته؟

وما وسائل وطرق تحصيله في زماننا والوصول إليه؟

وما دور الإعجاز العلمي وأهميته في ذلك ؟

هذه الأسئلة وغيرها هي ما سأحاول مقاربته في محوري هذه الورقة البحثية التي سأتناول في محورها الأول بإذن الله : الحاجة إلى الاطمئنان العقدي وأهميته وكونه محور رسالة الأنبياء والمرسلين، ودعوة العلماء والصالحين، ثم أعرض في المحور الثاني: لدور الإعجاز العلمي وأهميته في تحقيق الاطمئنان العقدي في زماننا من خلال عرض أمثلة ونماذج.

المحور الأول: الأنبياء والعلماء.. والاطمئنان العقدي.

لقد بدأت دعوة النبي محمد عليه الصلاة والسلام وكل الأنبياء.. بالعقيدة قبل الشريعة، لأن « العقيدة أساس التفكير»[1] و» أصل الإسلام»،[2] و»أساسُ إصلاح جميع خصال « الإنسان.[3]

كما أن الغرض الأول من إنزال الكتب ومنها القرآن الكريم، هو» إصلاح الاعتقاد وتعليم العقد الصّحيح، وهذا أعظم سبب لإصلاح الخلق؛ لأنّه يزيل عن النّفس عادة الإذعان لغير ما قام عليه الدّليل، **ويطهّر القلب من الأوهام** «[4]

الشيء ذاته نجده أيضًا في حديث النبي عليه الصلاة والسلام، كما في جوابه لمن سأله عن أمر يكفيه هواجسه وينجيه من الشيطان ووساوسه، فقال له: «**قل آمنت بالله ثم استقم**»،[5] فقد قدم عليه السلام الاعتقاد ـ آمنت بالله ـ على العمل ـ استقم ـ ؛ ذلك أن «أعمال العاملين تجري على حسب معتقداتهم وأفكارهم، فجدير بمن صلحت عقائده وأفكاره أن تصدر عنه الأعمال الصالحة»؛ [6] ولأن ضبط التصورات شرط أساس في ضبط التصرفات.

وبما أن إبليس أقسم أنه لن يترك الناس وعقائدهم وإيمانهم وأنه سيغويهم أجمعين؛ ليكثر سواد الداخلين معه إلى الجحيم، كما في قوله تعالى: [**قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَىٰ**

(١) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام. الشيخ الطاهر بن عاشور. ص ٥١ .
(٢) نفسه. ص ٥٣.
(٣) نفسه. ص ٤٥.
(٤) التحرير والتنوير الشيخ الطاهر بن عاشور. ج ١ ص ٣٩ـ٤٠.
(٥) صحيح مسلم. «باب جامع أوصاف الإسلام». الحديث رقم: (٣٨).
(٦) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام. الشيخ الطاهر بن عاشور. ص ٦٣.

يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ]؛ [ص: ٧٧ - ٨٣] وأقسم - أيضًا - أنه سيجند لذلك جنوده وأعوانه الجنيِّين والإنسيِّين من الذين يتاجرون «بالشبهات والصناعة الجدلية وأساليب الحجاج، للتشويش على المسلمين ولإقحام أسباب الريبة في الطريق إلى فهم العقيدة الإسلامية»؛[1] من أجل تكثير سواد المُشَوَّشِين والداخلين معه إلى النار مع الداخلين ، [**قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ**].[الأعراف: ١٦ - ١٧]

بما أن الأمر كذلك؛ كان لا بد من أن يتضمن الوحي المسطور والكون المنظور ما يستعين به المؤمنون على اطمئنانهم العقدي وطرد وساوس الشياطين ورد شبهات الملحدين.. التي تحير علماء الناس فضلًا عن عوامهم، وتشوش على كبارهم فضلا عن صغارهم.. ذاك الاطمئنان يحتاجه الناس في زماننا أكثر مما احتاج إليه من قبلنا ممن هم أعلى شأنًا عند الله وأقربهم منزلةً إليه منّا، لا فرق في الحاجة إليه بين المسلم أو المؤمن أو المحسن، فقد سجل لنا القرآن الكريم أن حتى أبا الأنبياء سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام احتاج إلى ذلك الاطمئنان وطلبه من الله تعالى، كما في قوله سبحانه: [**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**]. [البقرة. ٢٦٠]

فسيدنا إبراهيم عليه السلام كما يوضح شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله - رغم أنه « كان مؤمناً كما أخبر الله عنه بقوله: [**أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ**]، ولكن طلب طمأنينة أكبر لقلبه

(١) السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي الشيخ سعيد رمضان البوطي.. ص ٤٤.

[وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي]». [١]

فأبو الأنبياء وإن كان إيمانه كبيرًا وعاليًا وفي درجة الصديقين والمقربين؛ إلا أنه سأل ربه «مزيدًا من الطمأنينة»، [٢] و الوصول ل» درجة زائدةٍ على الإيمان،» كما يقول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله،[٣] وذلك « ليزيل عوارض الوسواس» كما يقول ابن الجوزي،[٤] وأيضًا لأن الخبر ليس كالمعاينة، كما يقول الفخر الرازي. [٥]

وقد نقل الإمام القرطبي – رحمه الله – عن عطاء في قوله تعالى [وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي [: « دخل قلبَ إبراهيم بعضُ ما يدخل قلوبَ الناس، فقال: [رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ] قال: [وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ]؛ ليريه». [٦]

ونقل عن الضحاك أيضًا في قوله تعالى: [وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي] [البقرة: ٢٦٠] يقول: ليزداد يقينًا». [٧]

كما نقل عن قتادة في قوله تعالى: [وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي] [البقرة: ٢٦٠] « قال: وأراد نبي الله إبراهيم ليزداد يقينا إلى يقينه». [٨]

---

(١) مجموع الفتاوى. ابن تيمية . ج ١٥ ص ١٧٨.
(٢) نفسه .ج ١٥ ص ٤٥٣ .
(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. ابن عطية الأندلسي . ج ٠٥ ص ٤٨١.
(٤). زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي. ج ١ ص ٢٣٦.
(٥) مفاتيح الغيب فخر الدين الرازي .ج ٠٣ ص ٤٥٨.
(٦) جامع البيان في تأويل القرآن. الطبري. ج ٠٤ ص ٤٩٠.
(٧) نفسه. ٠٤ ص ٦٣١ .
(٨) نفسه. ج ٠٤ ص ٦٣١ .

ويحصل هذا اليقين وهذه الطمأنينة كما يقول أهل البيان والتفسير « بذهاب وسوسة إبليس منه ويصير الشيطان خاسرًا صاغرًا.»[1] وذلك «بالمُعاينة بعد الإيمان بالغيب».[2]

هذا عن سيدنا إبراهيم، أما عن رسولنا صلى الله عليه وسلم فقد قال المفسرون كالفخر الرازي وغيره عن قوله تعالى: [**فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ**][يونس: ٩٤]: « إن القلب في دار الدنيا لا ينفك عن الأفكار المستعقبة للشبهات؛ إلا أنه عليه الصلاة والسلام كان يزيلها بالدلائل».[3]

ومن هذا - أيضا - طلب قوم موسى عليه السلام بالمعجزة في قصة البقرة ولم يكتفوا أن يخبرهم سيدنا موسى باسم القاتل « لأنهم وإن كانوا مؤمنين بذلك إلا أنهم لم يؤمنوا به إلا من طريق الاستدلال ولم يشاهدوا شيئا منه، **فإذا شاهدوه اطمأنت قلوبهم وانتفت عنهم الشبهة التي لا يخلو منها المستدل**».[4]

فإذا كان الأنبياء والرّسل المقربون.. - كما رأينا- طلبوا من الله تعالى الاطمئنان العقدي واحتاجوا إليه فبإزالة عوارض الوسواس الشيطاني..؛ فإن غيرهم من عموم الناس هم إلى ذلك أحوج !

وإذا كان الأنبياء والرسل يسألون اليقين والاطمئنان.. من الله مباشرة فيدلهم عليه بالمعجزات والأدلة والبراهين..؛ فإن علماء الإسلام بحثوا في إرثهم واختطوا لأنفسهم ولطلابهم ولعموم المسلمين طرقا ووسائل.. يُقتدَر بها على تحقيق ذلك الاطمئنان

(١) الكشف والبيان عن تفسير القرآن. الثعلبي. ج ٠٢ ص ٢٥٢ .
(٢) الوجيز في تفسير الكتاب العزيز . الواحدي، ص ١٨٦.
(٣) مفاتيح الغيب فخر الدين الرازي .ج ٠٣ ص ٤٥٨.
(٤) نفسه .ج ٠٣ ص ٥٥٣ .

العقدي والوصول إليه، وتنوعت أساليبهم وتعددت بتعدد الحاجات و تنوع الأحوال، فمرة لجأوا للحجاج الكلامي.. ومرة احتموا بالتربية والذوق الصوفي الوجداني..

فبالنسبة للمنهج العقلي الكلامي، فقد استطاع به علماء الكلام إيجاد آليات للإقناع والاطمئنان وطرد وساوس الشيطان، وإبطال شبهات الفرق المشوشة التي تنسب نفسها للإسلام وهي ليست منه.[1] وأفلحوا في ترسيخ الإيمان وطمأنة الداخلين فيه من الذين بقي بعضهم على شيء مما ورثوه من عقائدهم و»لم يستطيعوا أن يتخلصوا منها وأن يهجروها دفعة واحدة...»[2] أو أرادوا « تقريب الإسلام مما ألفوه، وتفسيره بما عرفوه» [3] فوقعوا وأوقعوا غيرهم في الشك دون أن يقصدوا.. فكان للكلام والحجاج العقلي دور كبير في ساحة التدافع العقدي و» الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة»[4] فأعادوا بهذا العلم الاطمئنان العقدي للذين تأثروا بتلبيس إبليس من الذين اتخذوا من الآي المتشابهة ذريعة للتشكيك والتدليس. [5]

أما الذين مالوا للمنهج الصوفي الروحي الوجداني القائم على المجاهدة وتزكية النفس بكثرة الطاعات والمداومة على الذكر.. فقد استطاعوا هم بذلك أيضًا إشغال الفكر بعيدًا عن هذه الوساوس والتشويشات.. وتجنيب عدد كبير من المريدين وساوسَ الشياطين ونزغاتهم، من خلا الاستعاذة بالله والاحتماء به والإكثار من ذكره والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم .. عملا بالتوجيه الرباني كما في قوله تعالى: [**وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ**

(١) المصدر نفسه. ص ٢٦٢. وما بعدها.
(٢) تاريخ الجدل الشيخ أبو زهرة.. ص ٦٦.
(٣) نفسه . ص ٦٦.
(٤) المقدمة. ابن خلدون. ص ٤٤٤ ـ ٤٤٥.
(٥) نفسه ص ٤٤٤.

الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ][الأعراف:٣٦] وبالتوجيه النبوي كما في الحديث الذي يرويه أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه: « **إن الشيطان يأتي أحدكم فيقول من خلق السماء؟**

فيقول: الله عز وجل.

فيقول من خلق الأرض؟

فيقول: الله.

فيقول: من خلق الله؟ !!!

فإذا أحس أحدكم بشيء من هذا ؛ فليقل: آمنت بالله وبرسله ».[1]

فالآية والحديث وما يشبه مضمونهما من النصوص الشرعية التي جمع العلماء بعضها تحت عنوان: « **باب ما جاء في الوسوسة**»[2] و» **باب القول عند وسوسة الصدر**» [3] وغيرها من العناوين المعبرة عن المعنى ذاته؛ هي التي دفعت بعض العلماء في اتجاه المجاهدة وتزكية النفس وتطهيرها.. قصد التغلب على شكوكها ووساوس شيطانها..

ومن أبرز الذين اشتهروا بهذا التوجه وسلكوه ونصحوا به: الإمام الغزالي – رحمه الله – الذي جعل من مجاهدة النفس وإغراقها في الروحانيات من ذكر وصيام وقيام..؛ سببًا لإرجاع اليقين والطمأنينة إلى قلبه وفؤاده، وقد فصل ذلك في كتبه، لا سيما في كتاب « **المنقذ من الضلال**» الذي سطر فيه تجربته ومعاناته مع شكوكه ووساوسه « حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال، ورجعت الضروريات

(١) مسند الإمام أحمد ، حديث رقم : ٨٣٥٨.

(٢) موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي تحقيق: حسين سليم أسد الدّاراني – عبده علي الكوشك ج ٠١ ص ١٤٦ .

(٣) الدعاء للطبراني. الطبراني . تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ص ٣٧٩ .

العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمن ويقين، ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله تعالى الواسعة».[1]

فالوصول لليقين وتحقيق الاطمئنان الفكري والعقدي الذي لا يبقى معه ريب ولا وهْم عند الإمام الغزالي ومن يوافقه؛ يحصل عن طريق التزكية والكشف والإلهام الرباني،[2] أما العقليات والمحسوسات وغيرها من الوسائل، فلا تحقق ذلك ولا تزيل الشك الذي «غرق فيه الأكثرون وما نجا منه إلا الأقلون».[3]

وإذا كان هذا آتى أكله مع الإمام الغزالي رحمه الله، وتلك القدرات الحجاجية والمناظرات الكلامية أقنعت أصحاب الملل والفرق والفلسفات..؛ فإن كل ذلك قد لا ينفع في زماننا إلا فئة قليلة كل الناس، بل علماؤهم ونخبهم.. فقط.

وعليه؛ فالأقرب لتوصيل ذلك اليقين للعموم، والأيسر في الفهم والتفهم والتفهيم في زماننا، هو الإعجاز العلمي، كما في المحور الموالي إن شاء الله تعالى.

(١) نفسه ص ١١٥

(٢) المنقذ من الضلال .الغزالي . ص ١١١.

(٣) نفسه ص ٧٨

المحور الثاني: الإعجاز العلمي والاطمئنان العقدي.

إذا كان الله عز وجل أيد الأنبياء - للحصول الاطمئنان العقدي وطرد الوساوس الشيطاني..- بالمعجزات والاطلاع على الغيبيات، وأرشد السلف والسابقين من علماء هذه الأمة إلى توظيف « الكلام» في العقليات، ومجاهدة النفس في الروحانيات ..

وإذا كان الإعجاز البياني والبلاغي قد قام ويقوم بأدوار إقناعية إيمانية للوصول للاطمئنان العقدي - سيما - في زمن النبوة والأزمنة القريبة منه، حينما عجز المشوشون والمشككون أن يأتوا بمثل القرآن أو بمثل أقصر سوره، فاطمئن المؤمنون لإيمانهم وأقنعوا غيرهم بمعجزة البلاغة القرآنية التي ضمنها الله الوحي المنزل عليهم، اللهم بعض الجاحدين كمسيلمة الكذاب ومن سار سيره من الشياطين الإنسية الذين جاءو بخزي من القول، ظنوه حجّة لهم، فكانت ركاكتُه حجةً على عجزهم، ودليلُ صحةٍ وصدق على إعجاز القرآن الكريم الذي [لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا].[الإسراء:٨٨]

بيد أن كل ذلك في زماننا هذا لا يدركه - كما سلف - إلا القلة والنخبة من الناس، بينما الإعجاز العلمي يدركه الناس كلهم أو جلهم على الأقل.

فكيف يحقق الإعجاز العلمي ذلك الاطمئنان العقدي والإيماني في زمن التطورات التكنولوجية والتغولات الحضارية المتسارعة..؟!

إن الجواب يكمن - قطعا - فيما تضمنته الآيات القرآنية والأحاديث النبوية من الحقائق العلمية القطعية، [1] وما تحمله من إعجاز علمي يُقتدر به على الدفاع عن العقائد

(١) المقصود بالحقائق العلمية القطعية..الآيات والأحاديث الواضحة مثل التي (مراحل تكون الجنين - تلقيح الرياح ...) احترازًا وتحذيرًا من تناول أمورٍ ظنية وغير يقينية ومقطوع بعلميتها وتقديمها على

الإيماني من المدخل العلمي، الذي يعرفه أهل الزمان ويعيشونه ويتخاطبون بلغته..

فالإعجاز العلمي يجعل المسلم يعيش على الدوام في محراب الإيمان بربه، وعلى خشيةٍ أكبر من مولاه: [إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ] [فاطر:٢٨]

إن أهل زماننا – لا سيما الشباب منهم – وإن كانوا لا يدكون جميعهم وسائل اليقين السابقة؛ إلا أنهم أو أغلبهم على الأقل يمتلك ثقافة علمية يَقتدِر أن يزن بها الأمورا والوصول إلى اليقين وإزالة الحيرة والشك ووساوس الشياطين..

وقد جربت هذا وعشته مع تلامذتي لسنوات، إذ كان بعضهم على شفا الإفلاس الإيماني والعقدي وإنكار الوجود الإلهي، لا يمنعه من البوح بذلك وإشهاره.. إلا أنه يعيش في مجتمع مسلم لن يتقبله وسينبذه ولا يمتلك الجرأة لمواجهته.

فأحيانًا يفضي إليك أحدهم بأسئلة مباشرةٍ من فبيل: « ما الدليل على وجود الله» ! ومن قبيل قول إحداهن، وقد اطمأنت أنها لن تزجر وسينصت لها: « أنا أصوم، لكن لا أعرف أين هذا الله الذي سأصوم من أجله»، وأحيانًا أخرى يطرحون عليك أسئلةً غير مباشرةٍ، لكن كل القرائن تدل على أن باعث طرح السؤال ودوافعه وجود إشكال عقدي عند السائل يحتاج الإجابة المقنعة عنه، فيقول لك: « لماذا يُلحد كثير من الناس ولا يؤمنون بالله» !

فهو يطالبك بالدليل على وجود الله دونما أن يصرح بذلك ويجهر به؛ لأنه ليس منكرًا لوجود الله، وإنما عنده وساوس وتشويش تحتاج المعالجة وإعادة اليقين والاطمئنان.

كلما تعاملت مع مثل هذه الحالات إلا وازددت اقتناعا بأهمية الإعجاز العلمي وتوظيفه العقدي، بل أحيانًا أتساءل ما ذا لو لم يكن الإعجاز العلمي؟ !!

أنها من الإعجاز العلمي، لأنها قد تؤدي لنتاج عكسية، نحن في غنى عنها بما هو متوفر عندنا من القطعيات واليقينيات..

فالحمد لله أنه ضمَّن لنا سبحانه وتعالى في وحيه المسطور والمنظور تلك الآيات الخالدة والمعجزات الباهرة، التي لا تزيل الشك باليقين والظن بالقطع .. فما إن ابدأ مع تلامذتي وطلابي في الجواب عن إشكالاتهم من خلال عرض وشرح أمثلةٍ من الإعجاز الذي تضمنته الآيات القرآنية والأحاديث النبوية كما في قوله تعالى: [**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**]، [المؤمنون: ١٢- ١٤]، وكما في قوله تعالى: [**وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ**] [سورة: ٢٢] و مثيلاتها من الآيات المتضمنة للإعجاز العلمي المقطوع به.

وأيضا ما تضمنته الأحاديث الكثيرة من قضايا الإعجاز كما في قوله صلى الله عليه وسلم : « **إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكا فيؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله، ورزقه، وأجله، وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، فإن الرجل منكم ليعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع، فيسبق عليه كتابه، فيعمل بعمل أهل النار، ويعمل حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة** ». [(١)]

ما إن أستعرض هذه النصوص وأمثالها انطلاقًا مما يعرفونه هم حق المعرفة من كون العلم لم يكتشف هذه الحقائق إلا مؤخرًا، ومن كون إخبار النبي عليه السلام بها يقتضي وجود مخبر له بذلك؛ وهو موجد هذا الكون وخالقه..؛ إلا وتبدأ ملامح وجه السائل الحائر في الانشراح والارتياح ثم يقر ويشكر ولا يعود..

(١) صحيح البخاري. باب ذكر الملائكة، رقم: ٣٢٠٨

إن كل من تأمل نصوص الوحي كالأمثلة السابقة وما ضارعها من نصوص الشرع المعجز وأمعن النظر فيها وألقى السمع لها، مثل آيات الأنفس والآفاق، كقوله تعالى: [وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ [[الآية: ٢٠ - ٢١]، وآيات اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما، كقوله سبحانه: [**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**]؛ [البقرة:١٦٤] لن يتردد في أن يشهد قائلًا: [رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ].[آل عمران:١٩١]

إن آيات وأحاديث الإعجاز العلمي في القرآن والسنة كثيرة ومتعددة، وليس الغرض هنا تتبعها وعدها، وإنما الذي أود أن الفت النظر إليه في هذا المؤتمر المباركة، هو أهمية وضرورة توظيف جهود كل المختصين في الإعجاز العلمي في التربية العقدية والإيمانية، وبيان ذلك للناس بأسلوب بين ومبسط، لا سيما عند الشباب الذين يجدون أنفسهم في حيرةٍ من إيمانهم أمام ما يلقيه الشيطان من أسئلة عن الكون والمصير في قلوبهم وأفئدتهم.. فهذا الجيل بقدر ما هو منبهر بالعلوم وتطوراتها.. بقدر ما هو مهدد في عقيدته وإيمانه بهذه الاختراعات وتسارعها وأسئلتها، أسئلة لا تقنعهم الإجابات عنها، إلا إذا كانت علمية وانطلقت من العلم، وقد جربت ذلك مرارًا معهم، فانتهت – والحمد لله – أسئلتهم وحيرتهم..

فأهمية الإعجاز العلمي في المجال العقدي، قد لا تحققها في زماننا الدراسات الكلامية ولا المناظرات الفلسفية ولا غيرها، لذلك وجب الاهتمام بالإعجاز العلمي، وكما وظف السابقون اللغة والمنطق وعلم الكلام.. في الدفاع عن العقيدة وتحقيق الاطمئنان العقدي لما احتاجوا إلى ذلك؛ فإننا اليوم في حاجة ملحةٍ إلى توظيف الإعجاز

العلمي في مبحث العقدية والإيمان.. كما على التربويين أن يعملوا على إدراجه ضمن المقررات الدراسية وبرامجها ومفرداتها.. لا سيما تلك الدروس والبرامج المرتبطة بمداخل التفكير والتوحيد والإيمان..

خاتمة

إن تَأَمُّلَ قطعيات الإعجاز القرآني والكوني.. يوصل بلا شك إلى أن لهذا الكون خالقًا أعلَمَ أنبياءه ورسله بخباياه، ومنهم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام الذي ما كان له أن يعرف أمورًا تحتاج إلى مجاهر ومختبرات.. لولا إخبار الله تعالى له بتلك الغيبيات..؛ وبتفهيم هذا وتفهمه، يَزاد المؤمن إيمانا إلى إيمانه.. ويطمئن الشاك والمتردد في عقيدته .. ويخنِس الشيطان وتختفِي وساوسه ..

المصادر والمراجع

❖ أصول النظام الاجتماعي في الإسلام. الشيخ محمد الطاهر بن عاشور. الشركة التونسية للنشر. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. الطبعة الثانية بدون تاريخ.

❖التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور. دار سحنون للنشر والتوزيع. تونس . بدون

❖تاريخ الجدل لأبي زهرة دارالفكر العربي.١٤٣١هـ ٢٠١٠م بدون طبعة.

❖ تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار). محمد رشيد رضا. نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٩٠م.

❖ جامع البيان في تأويل القرآن. الطبري. تحقيق أحمد محمد شاكر. مؤسسة الرسالة . الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ ٢٠٠٠ م

❖جامع بيان العلم وفضله.ا بن عبد البر. تحقيق: أبي الأشبال الزهيري. دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية. الطبعةالأولى: ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

❖الدعاء للطبراني. تحقيق مصطفى عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ .

❖ زاد المسير في علم التفسير. ابن الجوزي . تحقيق عبد الرزاق المهدي دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٢٢ هـ.

❖الكشف والبيان عن تفسير القرآن. الثعلبي. مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي. دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى ١٤٢٢، هـ ٢٠٠٢ م

❖المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. ابن عطية الأندلسي. عبد السلام عبد

الشافي محمد دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ

❖ مفاتيح الغيب. فخر الدين الرازي. دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ

❖المقدمة . ابن خلدون. دار الفكر– بيروت. ١٤٣٢ هـ ٢٠١٠م.

❖ مسند الإمام أحمد، أحمد محمد شاكر. دار الحديث – القاهرة. الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ ١٩٩٥ م

❖ موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان. الهيثمي. تحقيق: حسين سليم أسد الدّاراني – عبده علي الكوشك دار الثقافة العربية، دمشق الطبعة: الأولى، (١٤١١ – ١٤١٢ هـ ١٩٩٠ م –١٩٩٢ م)

❖المنقذ من الضلال. الغزالي. تحقيق: عبد الحليم محمود. دار الكتب الحديثة، مصر. بدون

❖مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي. دار إحياء التراث العربي– بيروت. الطبعة: الثالثة– ١٤٢٠هـ

❖مجموع الفتاوى. ابن تيمية. تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم. مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، السعودية. عام ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

❖صحيح البخاري. تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر. دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ

❖صحيح مسلم. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.دار إحياء التراث العربي– بيروت.

❖فصول في العقيدة بين السلف والخلف. القرضاوي. مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية ـ عابدين القاهرة الطبعة الأولى١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.

❖السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي. سعيد رمضان البوطي. دار

الفكر دمشق. ودار الفكر بيروت. الطبعة الثانية عشر . ١٤٣٥هـ ٢٠١٤م

❖ الوجيز في تفسير الكتاب العزيز . الواحدي، تحقيق: صفوان عدنان داوودي. دار القلم الدار الشامية - دمشق، بيروت. الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ